فلسفة القوة والإرادة عند نيتشه.. اليهود والعرب نموذجاً

محمد الشحي

يكثر الحديث عن مفهوم الحداثة في حقول المعرفة المختلفة، ومما لا شك فيه أنّ لكل حداثة محورًا (حدثًا) يغيّر أسلوب التفكير، ويفكك القوالب الجاهزة من داخلها ليبني قالبَه الخاص به الذي يجد نفسه فيه، ويلجأ إليّه من الاغتراب الذي يحسّ به. تتعرض الباحثة والأكاديمية الأردنية، سميرة فياض الخوالدة، في مقالها المعنون بـ«العرب واليهود في فكر الفيلسوف فردريك نيتشه»، لصورة كلٍّ من العرب واليهود في أدبيات هذا الفيلسوف الحدَث، الذي أثار الجدل كثيرًا، ولا زال. وسنكتشف لاحقًا لماذا اختارت الباحثة هذين الفرعين الكبيرين من الساميّة لتبحث عنهما في فكر نيتشه، رغم أنّها لم تصرحْ بذلك.

ابتدأت الباحثة مقالها بالتأكيد على الدور الذي لعبه نيتشه في الفكر العالمي، والأوربي بشكل خاص، وكيف أنّه شكّل، مع كارل ماركس وسيجموند فرويد، مثلثًا قامت عليه أوروبا القرن العشرين؛ في مختلف الجوانب الاقتصادية والثقافية والسياسية. تمثّل ذلك من خلال تمكّن فيلسوفنا من استشراف المستقبل الأوربي في القرن العشرين؛ من ذلك توقعه قيام حروب ضخمة (الحربان العالميتان مثالان صارخان!)، كما توقّع طغيان حالة من العدمية الأخلاقية وتلاشي معنى الحياة، وانتشار تطبيقات عملية لنظرية دارون (البقاء للأصلح)، وبالتالي طغيان «المادة» على «الروح»، وتهاوي نظام العالم القديم، وأنّه سيكون قرنَ السياسة على نطاق واسع (العولمة!). هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الثقافية؛ فقد نشأت العديد من الاتجاهات الفلسفية، وبالتالي النقدية، مستندة إلى «الواقع» الذي أكّد عليه نيتشه في سبيل مواجهة موجة التشاؤم التي تقودها الكنيسة، التشاؤم تجاه الحياة؛ ومن تلك الاتجاهات الفلسفةُ الوجودية التي أسسها مارتن هايدجر، ومن بعده جان بول سارتر، التي تؤكّد على الوجود الماديّ البحت للإنسان المنقطع عن الميتافيزقيا (بكل ما تشكله من أديان وروحانيات). ومن تلك الاتجاهات، أيضًا، المدرسة الشكلية في الأدب التي قامت على الاعتقاد بالظاهر الملموس فقط، وأنّه لا شيء وراء ذلك. وتؤكّد الباحثة على أنّ الوريث الشرعي لنيتشه هم مؤسسو الاتجاه التفكيكي، جاك دريدا وميشيل فوكو؛ فالأول يكاد يكون الامتداد الحقيقي لنيتشه، حيث استمر في تطبيق المنطق الناقض للمقولات الفكرية وهدْمها من الداخل ليعيد بناء مقولات حديثة. وأمّا في مجال السياسة، فينعكس أثر فكر نيتشه في محورين؛ الأول في اقتناعه التامّ بحكم النخبة، وهو بذلك يحمّل الثورة الفرنسية هذا التراجع في سيطرة النخب في الدولة؛ لأنها أرست مفاهيم الحرية والمساواة. والأمر الثاني الذي يعكس أثر فيلسوفنا في مجال السياسة فيكمن في فلسفة القوة والإرادة لديه، والتأكيد على الحياة وكل ما يخدمها ويقوّيها، ويدفع الإنسان إلى تجاوز الذات. وسنرى كيف عكست فلسفته للقوة والإرادة صورةَ اليهود والعرب في أدبياته.

في رأيي، أنّ مفكّرًا حدَثا، كنيتشه، من الطبيعيّ أنْ يُساء فهمه من قبل كل من معجبيه ومنتقديه. فأمّا معجبوه فلمْ يقرؤوه في زمنه الذي أثّر بلا شك في آرائه؛ يُنسَب إليه أنّه كان وراء ظهور النازية والفاشية (المعجبون به) لكونهما تؤكّدان على أفضلية النخب وترفضان مفاهيم الديمقراطية وحكم الجماهير. كما تُرجع الباحثة سبب سوء الفهم إلى اللغة التي استخدمها نيتشه، اللغة الشاعرية، التي يسهل السقوط دون الوصول إلى مدلولات ألفاظها، وكذلك إلى الرؤية المنظورية التي قدّم فيها رؤاه من مختلف الزوايا بطريقة متساوية، مما يصعّب تحديد المعنى الذي يقصده نيتشه. في المقابل، لم يراع منتقدوه الشاعرية التي يفيض بها فوقعوا في التفسير الظاهري لنصوصه، ليتسرعوا في الحكم عليه بالعدمية. بينما المنصفون له، أمثال تشارلز سكوت، يقرؤونه بهدوء ليجدوه يرمي إلى ما وراء الأكَمَة.

في رأيي، ينظر نيتشه إلى اليهود والعرب من منظورين، داخليّ وخارجيّ؛ فأمّا الداخلي فينبع من نفس الإنسان اليهوديّ والعربيّ. وأمّا الخارجيّ فيكمن في موقع كل من اليهوديّ والعربيّ في العالَم المتصارع.

انطلاقا من مفاهيم القوة والإرادة، فإنّ نيتشه يرى في الإنسان اليهودي إنسانًا يحمل طاقة وذكاء متفوقَيْن؛ ذكاءً عقليًا وإرادة تشكلان رأسمال تراكم لمدّة طويلة، وجيلا بعد جيل في مدرسة الشقاء التي بلّغتهم درجةً من السيطرة على العقل والإرادة تُثير الغيرة والبغض، مما انعكس لاحقًا بالمذابح التي طالت اليهود، ثم التخلّص منهم بوعد بلفور. ويؤكد نيتشه على أن اليهود هم السلالة الأقوى والأكثر مقاومة وصلابة في أوروبا من خلال رؤية الأوروبيين لليهود على أنّهم عبء ثقيل ولا يمكن هضمهم بسهولة، فاليهود يعرفون كيف يفرضون أنفسهم حتى في أقسى الظروف، وذلك بفضل مزايا خفية يمكن أن تحمل على محمل العيوب أحيانا؛ ومنها أنّ اليهود يتكيّفون مع الظروف بكل هدوء. وهو، أي نيتشه، عندما يكيل الهجوم على اليهود، فإنّه يفعل ذلك، في رأيي، انتصارًا للحياة ومُتَعها. فبعد أن يسرد الثناء على شخص السَيّد المسيح، نجده يهاجم بولس، المؤسس الحقيقي للكنيسة المسيحية. ويقارن بين شخص المسيح المحب للحياة، والواهب المحبة للناس- وبين شخصية بولس (اليهودي) الذي لم ينعتق من عقليته اليهودية الصارمة تجاه الحياة ونبذ متعها، ليبتدع موجة الرهبنة مما أوجَد لنا دينًا مسيحيًا باهتًا- حسب نيتشه- ثم نراه يعلن فوز هذه الشريعة الصارمة، شريعة العبيد، في معركتها مع روما، وارثة الحضارة اليونانية؛ لأنّ أوروبا فتحت المجال لغير النخب أن تنتخب وتقرر مصير الدول التي ينبغي أنْ يقودها النخب لا غيرهم.

أمّا نظرته لليهود من الخارج، المنطلقة أيضًا من مفاهيمه حول الإرادة والقوة؛ فتتلخّص في دورهم الثقافي في أوروبا، وموقعهم من هذا المجتمع. إذ يرى أنّ أوروبا إذا لم تمانع أن ينشأ جنس أوروبي هجين (من السامية والآرية) — فإنّ اليهوديّ عندها يصير عنصرًا مفيدًا ومرغوبا فيه. ويكمل دعواته إلى دمج اليهود عن طريق نقده للعقلية الأوروبية الضيقة التي أبعدت الأقلية اليهودية من دائرة القبول اجتماعيا، وهذه مشكلة لا يمكن حلها، حسب نيتشه، إلا إذا استبدلت بهذه العقلية عقلية الانتماء الإنسانيّ العريض (الأوروبي الصالح). ويؤكد على أنّه لم يبق أمام الإنسان اليهودي سوى أن يعلن نفسه مواطنا أوروبيا صالحا، وأنّه في كل أمة هناك ملامح منفرة، فمن الظلم أن نطلب من اليهودي أن يكون استثناءً؛ وهو هنا، في رأيي، يجعل مشكلة اليهود على عاتق الأوروبيين أيضًا؛ إذ ليسوا، في رأيه، نسيجًا وحده فيما يتصف به من ملامح منفّرة، بل يعترف لهم بالفضل في نقلهم لأوروبا علوم اليونان القديمة، ليصيح بأعلى صوته «يحسن بنا أن نطرد من البلاد جميع الأبواق المعادية للسامية، ينبغي استقبال اليهود بتعقل واصطفائية..»

وفي معرض حديثه عن إرادة القوة والشعوب النبيلة (شعوب الفرسان المحاربين) في مقابل الجنود- يؤكد نيتشه على ذكر العرب كشعب عريق نبيل يأبى الذل والخنوع. ويستدل بقراءاته (المفهومة) للقرآن؛ إذ يقول إنّ المحمدية دين أولئك الذين يحتقرون الانفعالات العاطفية، وليس ذلك من شيم الرجال بل النساء. مجددًا، نرى كم يحاول نيتشه أن ينتصر لفكرته في الإرادة والقوة بموضوعية، بعيدًا عن الذاتية الآرية أو المسيحية. وتزعم الخوالدة أن نيتشه قد قرأ القرآن على الأقل.

وإذا استبعدنا استدلال الباحثة بالآثار العربية في شعر نيتشه، فإنّنا لا نجد صورة واضحة للعرب. كل ما هنالك لا يعدو تلك الصورة النمطية عند المستشرقين، بصورة عامة، من حيث كون «الشرق» موطن «الأوانس» التي تمثّل بالنسبة له لذّة الحياة وحبّها، فمن الطبيعي أنْ ينتصر لها في مقابل شريعة العبيد.

ختامًا أقول إنّ نيتشه كفيلسوف ومفكر حَدَث، يحتاج إلى قراءات متعددة، ومن زوايا مختلفة، وبروح صابرة؛ كي لا نقع في سوء فهمه والتسرّع في إطلاق الأحكام على فلسفته بأنها عدمية لمجرد أنّنا لم نفهم ظواهر كلامه، ولم نَغُصْ في ماوراء لغته. الحقّ أنّي لم أجد مقال الخوالدة سوى قراءة تتبّع الجنس الساميّ في أدبيات نيتشه وكأنّها تحاول الانتصار له على حساب الجنس الآريّ؛ وإلا فأين الموازنة في الطرح بين صورة كل من اليهود والعرب في تلك الأدبيات. إنّي أرى الكاتبة لم توفّقْ في تلك الموازنة التي يشي بها عنوان المقال الأصلي. أمّا نيتشه فيقف الكلام عنه وعن إخلاصه لأفكاره في الإنسان الخارق — المحارب، وعن دوره في تفكيك العقلية الأوروبية ونقدها.

Alshehhim@hotmail.com